الخطيب البغدادي بين الشفاهية والكتابية

من خلال كتابه «تقييد العلم»

الدكتور محمد رضا خَضِري*

الملخّص

ترمي هذه الدراسة إلى إعطاء لمحة موجزة عن مفهومي الشفاهية والكتابية وعلاقتهما ببعض، وإلى استعراض آراء عدد من الباحثين والمفكرين القدماء والمعاصرين وعرض وجهات نظرهم، وإلى إعطاء القارئ صورة عن هذين المفهومين من خلال كتاب "تقييد العلم" للخطيب البغدادي، وتحوي المحاور الآتية:

- الكتاب والكاتب .
- كلام في الشفاهية .
- كلام في الكتابية .
- موقف المؤلف من منع الكتابة.
- رأيه في الإباحة .
- أثر ذلك في حركة التدوين والكتابة.

وقد أثبتنا اعتماد الكُتَّاب الكبار على المفهومين: الشفاهية والكتابية، وأن كتبهم المشهورة تستقي موادها وأخبارها من ألسنة الحكماء والشيوخ والعامة فتنقلها شفاهياً، وتُضَمِّنها كتبهم وآثارهم، كما رأينا في كتب الجاحظ المختلفة، وخاصة كتابه (البخلاء).

* جامعة الشهيد بهشتي الإيرانية- طهران- إيران

لا يجد الباحث عنتاً كبيراً ولا يصادف مشكلةً ضخمة حينما يعمل على تأكيد وجود الكتابة في العصر الجاهلي، فإن هناك نصوصاً كثيرة مختلفة لاتدع مجالاً للريب في أن العرب في الجاهلية قد عرفوا الكتابة واستخدموها في كثير من مناحي حياتهم، ومن هذه النصوص ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ]**[1].

وقد أشار الجاحظ إلى هذا في كتابه "الحيوان" وذلك بقوله: "لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط، والسجلات، والصكاك، وكل إقطاع، وكل إنفاق، وكل أمان وكل عهد وعقد، وكل جوار وحلف. ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حِلِزَّة في شأن بكر وتغلب [من الخفيف]:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قـ ـدَّم فيه العهودُ والكفلاءُ
حَذَرّ الجَوْر والتَّعدي وهل يَـ ـنْقُضُ ما في المهارق الأهواء!

والمهارق: ليس يراد بها الصحف والكتب، ولايقال للكتب مهارق حتى تكون كتبَ دَيْن، أو كتب عهود ، وميثاق، وأمان".[2]

إذ ليس من المعقول أن يكون العرب الجاهليون يجهلون القراءة والكتابة والتدوين رغم مكانتهم السياسية والدينية والاقتصادية وما تفرضه هذه المكانة من ضرورات التدوين، وهم أمة نزل بينهم القرآن الكريم بما فيه من البلاغة والإيجاز والإعجاز والنضج الفني، وقد أشار ويل ديورانت في كتابه (قصة الحضارة) إلى أنه قد عرف

(1) سورة البقرة: الآية 282.
(2) الحيوان، 1/69-70

اسم خمسةٍ وعشرين من ملوك المملكة المَعْنِيّن التي كانت قائمة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب من خلال نقوش عربية جنوبية يرجع تاريخها إلى عام 800 ق.م[3]. ولكن هذا لا يعني أن فنون الكتابة قد نضجت وتطورت في أيامهم، لأن هناك أكثر من سبب حال دون تحقق ذلك،ومن هذه الأسباب:

1 - رغبة العرب القدماء في الحفظ والارتجال واعتمادهم على الذاكرة، ورأيهم "أن العلم في الصدور وليس بين السطور"، ونظراً إلى كثرة تنقلهم وترحالهم، ونظراً إلى طبيعة حياتهم، كما أشار المقريزي في كتابه الخطط قائلاً: ثم كثر الترحال إلى الآفاق، وتداخل الناس والتقوا، وانتُدِبَ أقوام لجمع الحديث النبوي وتقييده[4]، فإن ذاكرتهم وحافظتَهم قد وعت الكثير مما أنتجته قرائح شعرائهم وأدبائهم وخطبائهم مما جعل الرواة الصادقين يلتمسون الكثير من هذا الإنتاج من شفاه العرب مباشرة في صحرائهم، ثم ظل هؤلاء الرواة يتناقلون طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل ما قد حفظوه من العرب الجاهليين، لكنهم انتقلوا إلى التدوين بعد ذلك بلهجة قريش التي نزل بها القرآن الكريم، حتى أُتيح لهذا المحفوظ أن يستقر في بطون الكتب والدواوين منذ منتصف القرن الثاني للهجرة على يد الخليل بن أحمد الذي كان على رأس الطبقة الثالثة من الرواة الإسلاميين. [5]

2 - انصراف المسلمين في البداية للدين الجديد، وانكبابهم على قراءة القرآن الكريم، وخاصة أن القرآن كفى المسلمين النظر فى الكتب القديمة، وصار مهيمناً عليها، وحتى لا يضاهى بكتاب الله غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه، كما نهي أن تُتخذ الكتب القديمة مرجعًا ومصدرًا للمعرفة، لأنه لا يعرف حقها

(3) قصة الحضارة؛ مجلد 4، ج2، ص 8.

(4) الخطط والآثار، 333/2.

(5) الأدب العربي وتاريخه، ص69.

من باطلها وصحيحها من فاسدها " ونهي عن كتب العلم في صدر الإسلام لقلة الفقهاء في ذلك الوقت، والمميزين بين الوحي وغيره، لأن أكثر الأعراب لـم يكونوا قد فقهوا في الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلا يؤمن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدون أن ما اشتملت عليه هـو مـن كـلام الرحمن". [6] وقد سرد الخطيب البغدادي صاحبُ هذه الفكرة في القسمين الأول والثاني من كتابه (تقييد العلم) الأحاديثَ والأخبار التي تذكر كراهـة الكتابـة، وتُبَيِّنُ أسبابها في صدر الإسلام.

وهناك أسباب أخرى تتصل بقلة توافر الأدوات اللازمة للكتابة في ذلك الـزمن فضلاً عن بساطة ما توافر منها، ما جعل من نشاط حركة التدوين صعوبة أدت إلى تأخر زمن الكتابة.

الخطيب البغدادي وكتابه (تقييد العلم):

هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، ولد بغُزَيَة منتصف الطريق بين الكوفة ومكة سنة 392 للهجرة، 1002 للميلاد، وتوفّي ببغداد سنة 463[7] . وهو أحد الحفاظ المؤرخين المصنفين المكثرين، ومن خُتِمَ به ديوان المحدّثين، سافر إلى مكة وسمع بالبصرة والدِّينَوَر والكوفة، ورحل إلى نيسابور في سنة 415هـ، ثم عاد إلى بغداد، فآذاه الحنابلة بجامع المنصور سنة 451هـ، فسكنها مدة، وخرج على إثرها مستتراً إلى الشام، فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، ثم عاد إلى بغداد في سنة 462هـ فأقام بها سنة ثم مات. له مؤلفات كثيرة، ذكر ياقوت أسماء تسعةٍ وسبعينَ كتاباً، منها: "تاريخ بغداد، أربعة عشر مجلداً"، له أهمية خاصة في تواريخ المركز الإسلامي والعربي خصوصاً لاطّلاعه على الأحداث

(6) تقييد العلم، ص57.

(7) معجم الأدباء، 14/4.

في عصره، ولمعرفته بمصادر تلك التواريخ الأصيلة، وله "البخلاء"، و"الكفاية في علم الرواية"، في مصطلح الحديث، و"الأمالي" ... إلى غير ذلك من مؤلفات مفيدة مهمة. ومن كتبه الذائعة الصيت "تقييد العلم" وفي تسمية كتابه الذي يُظهِرُ علمه وبحثه إشارةٌ إلى منهجه في سرد" أحاديثه التي تشير إلى موقف النبي ﷺ والصحابة والتابعين من الكتابة في صدر الإسلام، وفي أسلوب خاص يُكثر فيه من الأمثلة والشواهد دون أن يعلق على ما يروي، إلاّ في القليل النادر حين اقتضت الحاجة إلى الإيضاح، ويحاول عدم التدخل بين القارئ والنصوص، لأنه يعتقد بحرية القارئ، ويحسبه غير محتاج إلى هادٍ ولا دليل.

بدأ الخطيب كتابه بذكر الأحاديث التي تنهى عن الكتابة موزعة بحسب رواتها دون أن يخصص حديثاً من الأحاديث، ثم يسرد ما رُوي عن الصحابة كل واحد على حدة، وأخيراً يُتبع ذلك بما ورد عن التابعين بهذا الخصوص، قال في مقدمته: "وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحُه"، فحمل جماعة من السلف حكم كتاب العلم على ظاهر هذا الخبر، وكرهوا أن يكتب شيءٌ من الحديث وغيره في الصحف، وشددوا في ذلك، وأجاز آخرون منهم كتاب العلم وتدوينه، وأنا أذكر بمشيئة الله ما روي في ذلك من الكراهة، وأبيّن وجهها، وأن كتْبَ العلم مباح غير محظور، ومستحب غير مكروه، وبالله تعالى أستعين، وهو حسبي ونعم الوكيل"[8] .

وقد أورد المؤلف في كتابه ما اجتمع له من الأحاديث والأخبار التي لها صلة بنشأة تقييد العلم، فحاول خلالها أن يثبت أن تقييد العلم أو الحديث مباح غير محظور، مستحب غير مكروه، ووضعها في اتجاهين اثنين: اتجاه يشير إلى جواز كتابة الحديث، والإقبال عليه، والآخر يظهر خلاف ذلك، وهذا ما قد كان وجده متقدمون،

(8) تقييد العلم، ص28.

غير أنه أضاف إليه شيئاً جديداً، وهو أن بعضها يتضمن الإشارة إلى سبب كراهة الكتابة، فبدا له أن يُفرد هذه النصوص بباب خاص، علّها تنطق من نفسها عما يزيل الخلاف، ويُرفع التناقض، ومن هنا كانت فائدة الكتاب متعددة الجوانب.

وقد اختلفت الآراء اختلافاً حاداً في تاريخ تدوين الحديث، فذهب بعضهم ومن بينهم المستشرق الألماني شبنجر Spenger، وهو أول من اكتشف كتاب (تقييد العلم) سنة 1855 إلى أن الحديث كتب منذ عصر الرسول (ص) ورأى بعضهم الآخر أنه كتب فيما بعد. (9)

ولكنه ومن المسلم به أن التأليف والكتابة في الحديث بدأ في العصر العباسي وتحديداً في منتصف القرن الثاني للهجرة ، ووجدت هذه النزعة إلى تدوين الحديث في أمصار مختلفة ... ونشطت حركته في القرن الثالث، وبذلك كان خير العصور، وفيه ألفت أهم كتب الحديث. (10)

في الشفاهية:

كان لدى العرب القدماء اعتزاز شديد بالشفاهية، وانصراف ملحوظ عن الكتابة مثلما لاحظناه عند رواة الشعر في القرن الأول للهجرة، إِذْ إنهم كانوا ينشدون الشعر وينشرونه بين الناس مشافهة على الرغم من كتابة بعضهم الشعر، وكان الشعراء يفاخرون بتنقل قصائدهم في الأمصار مشافهة، وهذا جرير يفاخر بقصائده التي تُروى مشافهةً فيقول [من الطويل]:

خَروجٌ بأفواه الرواة كأنها قِرى هِنْدُوانِيٍّ إذا هَزَّ صمّما (11)

(9) العش: د. يوسف. مقدمة تحقيق كتاب تقييد العلم ص 16، 107/2.
(10) ضحى الإسلام، 107/2.
(11) ديوان جرير: ص447.

وها هو سهل بن هارون يؤكد أن لسان البليغ والشعر الجيد لايكادان يجتمعان، وأعسر من ذلك اجتماعُ بلاغةِ الشعر وبلاغة القلم، وفي هذه العبارة يكاد يسوي بين الشعر ونظام الشفاهة التي لا قبل لها بتخطي الحدود وتناسي المخاطب والاحتفال به أيما احتفال، والبيان العربي كان يدافع باستمرار عن فكرة الشفاهة ضد النزعة الكتابية التي تقوم على الاعتراف بالمسافة بين المتكلم والمخاطب وملاحظة الموضوع أكثر من ملاحظة التأثير، أو ملاحظة الوفاق أكثر من ملاحظة التنازع والمماراة .[12]

ولا شك في أن شفاهية الكلام بشقيه: الأولية التي لم تَمَسَّها مطلقاً أيــةُ معرفــة بالكتابة أو الطباعة، والثانوية التي تتميّز بها الثقافات ذات التكنولوجيــا العاليــة فــي الوقت الحاضر، والتي كانت ولا تزال تؤدّي دوراً رئيساً فــي التعبيــر عــن الفكــر البشري، فهناك دراسات بناءة ومهمة ظهرت من تقاليدَ متفرقة بعينهــا فــي الــساحة الأدبية التي قامت على الشفاهية، وتناولت: إمَّا الروايات الشفاهية الأولية لهذه التقاليد، أو العناصر الشفاهية في نصوصها الأدبية.

وفي الغرب على سبيل المثال، تعدُّ الملحمة أساساً - وبصورة لا مفــر منهــا - شكلاً فنياً شفاهياً، وكلما تضاءلت الشفاهية مع الكتابة والطباعة، تغيّر شكل الملحمــة بصورة لا مناص منها، مهما حسنت نيّات المؤلف وجهوده [13] كما لا شــك فــي أن الذاكرة قامت بدور متميّز تماماً في شفاهية الكلام عن ذلك الذي قامت به في الكتابــة، على أننا لا نستطيع أن نقدم شرحاً لكيفية عملها، وأهل الثقافات الشفاهية الأولية التــي لم تمسها الكتابة بأي صورة، يتعلمون كثيراً، وعندهم قدر هائل مــن الــذاكرة التــي يمارسونها.

(1) البيان والتبيين 243/1.

(13) الشفاهية والكتابية، ترجمة د. حسن البنا عزالدين، ص277.

وقد ارتبطت الشفاهية ارتباطاً وثيقاً ، في نظر الجاحظ ، بافتتان المتكلم بما يقول من جهة، وافتتان المستمع بما يسمع من جهة أخرى، وليس أَدلُّ على ذلك من ملاحظاته موجة التوقّي من البيان الشفاهي الذي يحكيه عن الأتقياء والربانيين[14] ، ولعل أحد الوجوه الأكثر أهمية وإثارة في رؤية الجاحظ عموماً يتمثل في حرصه على ربط الحياة الإنسانية بالبيان الشفاهي والفن القولي إِذْ يقول: وإذا ترك الإنسانُ القول ماتت خواطره وتبدلت نفسه، وفَسَدَ حسُّه، و من أجل ذلك كانوا يُرَوَّونَ صبيانَهم الأرجاز، و يعلمونهم المناقلات ، و يأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتق اللهاة و يفتح الجِرْم.[15]

ولنا في أخبار ابن الأعرابي ما يؤكد ويفيد ويغني، فقد عُرف عنه اهتمامه بالكتب، وإكثارُ نظره فيها وأخذه منها، ومع ذلك يذكر ثعلبُ أمره على غير هذا فيقول: شاهدت ابن الأعرابي وكان يحضر مجلسَه زهاءُ مئةِ إنسانٍ، وكلٌّ يسأله أو يقرأ عليه ويُجيب من غير كتاب، قال: ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط، وما أشك في أنه أملى على الناس ما يُحمل على أجمال.[16]

وشاعت بين عامة الناس فكرة "احفظوا كما كنا نحفظ"، وقد أيد ابن خلدون هذه الفكرة الشائعة والسائدة لدى العرب فقال: "والقوم يؤمئذٍ عرب، لم يعرفوا عن التعليم والتأليف والتدوين، ولا رجعوا إليه، ولا دعتهم إليه حاجة، وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين" [17] ، كما غلبت هذه الفكرةُ على أصحاب العلم والمعرفة، فكانوا يصدقونها تصديقاً، رغم أنهم كانوا يجدون لها نقيضاً. وهذا ابن حجر يقول: "اعلم أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار مَنْ تبعهم مدونةً في الجوامع،

(14) البيان والتبيين، 254/1.
(15) البيان والتبين، 272/1.
(16) معجم الأدباء، 627/6.
(17) المقدمة، ص 480.

ولا مرتبةً لأمرين: أحدهما أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نُهُوا عن ذلك، وثانيهما لسعة حفظهم، وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار، لَمَّا انتشر العلماء في الأمصار". (18)

ويكاد يكون السجعُ أبرزَ مظاهر سحر البيان الشفهي الذي أفرد له الجاحظ في البيان والتبيين مساحةً كبيرة، فالأسجاع تورث المهابة، وتساعد على التحكم، وتحفظ السيرورة ، وتساعد على نمو الذاكرة، كما تساعد على تقييد الكلام، وقد شاع هذا النوع من البيان في العصرين: الجاهلي والإسلامي و كان يستخدم أكثر ما يستخدم في الدعايات الدينية والحربية، لأنه أشدُّ تأثيراً في النفوس، وأقوى صلة لِمَا فيه من ترنيمات موسيقية خاصة، وما أجمل قول الدكتور مصطفى ناصف حين تحدث عن علاقة السجع بالبيان وهو يقول: "ارتبط السجع في الثقافة الشفهية بالدهاء والفطنة، واللَّسَن واللَّقَن والجواب العجيب، والأمثال السائرة والمخارج العجيبة ... كانت الأسجاع هي التعبير الواضح عن الحفظ بالقلب الذي هو فوق الكتب".(19)

وفي هذا السياق نجد أن الرقاشي لم يُغْفِل أهميةَ السجع ودورَه في الشفاهية، فقد ورد عنه في الإجابة عن سبب تغليبه السجع وذكر فضله في النثر أنه قال : إن كلامي لو كنت لآمل فيه إلا سماع الشاهد ، لقل خلافي عليك . ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت.(20)

(18) فتح الباري: ص4.
(19) محاورات مع النثر العربي، ص49.
(20) البيان والتبيين، 1/ 287.

في الكتابية:

انطلاقاً من الفهم العميق للشفاهية يمكننا فهم عالم الكتابة فهما أفضل، وقد توقفنا وقفة تفصيلية عند الشفاهية، واليوم لا يستطيع الفكر الإنساني إنجاز الغايات على الوجه الأكمل من دون الكتابة، فالشفاهية تحتاج في عصرنا إلى أن تنتهي إلى إنتاج الكتابة.

والكتابية كما هو معروف بدأت بالكتابة، ومما لا شك فيه أنه كان ولا يزال للكتابة دور أساسي في حفظ منتجات الحضارة الإنسانية، وهذا الدور يتمثل في قدرتها على تدوين أنماط النشاط الشفهي، وهناك عدد من اللغات التي اختفت أو تحولت إلى لغات أخرى قبل أن تعرف الكتابة، فالكتابة ضرورة ملحة للإنسان والمجتمع البشري، وأمَّا الأكثر إلحاحاً فهو تفاعل الكتابة والشفاهية مع بعضها بعضاً، ونحن لا نكاد نعثر في عالم اليوم على ثقافة شفاهية، أو ثقافة تسودها الشفاهية، إلاّ إذا كانت على وعي بالبعد الثقافي الشاسع الذي لا سبيل إلى بلوغه أبداً من دون الكتابة [21]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تستغني الكتابة عن الشفاهية إطلاقاً، ذلك أن النصوص المكتوبة كلّها مضطرة بطريقة ما، مباشرة أو غير مباشرة، إلى الارتباط بعالم الصوت، كي تعطي معانيها، وفي العصر العباسي عصر الخطيب البغدادي "تزداد إشكالية أمر النثر بين الشفاهية والكتابية، ويضاف إليها عند ابن المقفع إشكالية الترجمة والنقل والتصرف فيها". [22]

وأفضل ما يمكن ذكره في هذا المنحى، أي اختلاط الكتابية بالشفاهية، هو مؤلفات التوحيدي، فهو في كتابه (مثالب الوزيرين) يعتمد على تناقل الرواية، وعلى ذكر أسانيدها، إذْ يقول: (أخبرنا فلان عن فلان عن فلان أنه قال)، فينسب روايات

(21) راجع الشفاهية والكتابية للأستاذ والترج أونج، ص 65.
(22) المرجع في النثر الأدبي في العصر العباسي، ص 19.

وأحاديــث وغيرها إلى آخــرين، منها ما هو شفاهي ومنها ما هو كتابي ، ويزداد الأمر إشكالية عند التوحيدي حين ينتقل بالشفاهية من عصر الصحابة والتابعين، إلى الكتابية في زمنه ، مبتدعاً في هذا نصوصاً وآراء وأحكاماً خِلافية ، يَفْتَنُّ في سردها مقلداً ماتعارفت عليه الذاكرة الجمعية من تصور لأسلوب الأوائل . وهو يستمر في ابتداع تقليد كتابي لأساليب الآخرين حتى يصل إلى أعلام عصره ، فينسب فيه كثيراً من الأقوال إلى ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي إسحاق الصابيء يبتدعها ابتداعاً مقلداً في مبتدعاتها التفاوت بين أسلوب كل علم من هؤلاء الأعلام ، تقليدا محكماً يدفعك إلى الظن بأن أبا حيان صادق.

والأمر لدى الجاحظ ليس نسياً منسياً، حيث الشفاهية تقترن بالكتابية أيضاً، فأكثر ما عرف عن الجاحظ شغفه بالكتب وكثرة جمعه لها، فكان يكتري دكاكين الوراقين، كما كانت مكتبته عامرة بكتب ثقافة عصره، وقد كتب وأكثر وأطال، وأملى بعد أن أصيب بالفلج، لكن إفادته من الشفاهية في تقييد علمه وأدبه صارخة معروفة يؤكدها بنفــسه، فيقول في كتابه (البيان والتبيين): "وقد جمعت لك في هذا الكتاب جملاً التقطناها مــن أفواه أصحاب الأخبار". [23] ومن المعروف أن الجاحظ في رسالته " التربيع والتدوير" أخذ على محمد بن عبد الوهاب أنه يستمد مصادر علمه من الكتب وليس من صــدور العلماء.

لكن نبرة خفية تلوح بين وقت وآخر في ثنايا هذا الجانب هي نبــرة الإكثــار مــن الشفاهية في كتابه (البيان والتبيين)، إنه أكثرُ احتفالاً، فيما يبدو بلحظة متــسامية منــه بتيار الحياة المتصل، معنيٌ بالإيجاز أكثر من عنايته بالتحليل ، معنيٌّ بالكلمة الجامعــة لا الكتابة التي تختفي منها الأجزاء المؤثرة .

(23) البيان والتبيين، 18/2.

وهنا نستطيع القول: إن هذه الظاهرة، ظاهرة اقتران الشفاهية بالكتابية، تكاد تكون سارية لدى الخطيب البغدادي أكثر من غيره، بحيث إنه جمع بين الأمرين: الشفاهية والكتابية في كتابه (تقييد العلم)، ويسوقنا هذا إلى أن نتوقف عند رأيه في كتابة العلم:

موقف الخطيب من المنع :

أراد البغدادي في القسم الأول من كتابه هذا أن يقتصر على جمع الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين التي تنص على كراهة كتابة العلم، فهو يسوق الحديث تاماً بأسانيده المختلفة في موضع واحد، والذي حمل البغدادي على هذا غلبة الاهتمام بعلوم الحديث عليه، وكان يعتمد ذوقَه وخبرته الواسعة في سرد الأحاديث، فأحسن الانتقاء والاختيار من الأحاديث والروايات، وجعل هذا القسم من الكتاب في ثلاثة فصول، وزّعها كما يأتي: الفصل الأول : نهي الرسول عن الكتابة، الفصل الثاني، باب ذكر الأحاديث الموقوفة عن الصحابة في كراهة الكتابة، والفصل الثالث، باب ذكر الرواية عن التابعين في كراهة الكتابة.

ويُلاحَظُ على هذا القسم جملة أمور منها:

1 - تتفق الأحاديث والروايات كلّها في هذا القسم على موضوع واحد، وهو عدم كتابة الحديث، أو فيما يسمى بتقييد العلم.

2 - تتميّز اللهجة السائدة في الأحاديث المنسوبة إلى الرسول ﷺ في هذا القسم بنوع من الشدة والحذر، في حين تخلو الأحاديث المنسوبة إلى الصحابة والتابعين من هذه الظاهرة.

وإليك الحديث الآتي: أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل بن شاذان الصيرفي بنيسابور، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا محمد بن إسحاق الصغاني، وأخبرنا أبو الفتح محمد بن أحمد بن أبي الفوارس

الحافظ وأبو بكر محمد بن أحمد بن يوسف الصياد، قالا: أخبرنا أحمد بن يوسف بن خلاد النصيبي، حدثنا الحرث بن محمد التميمي، قالا: حدثنا عفان، حدثنا همام، أخبرنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن النبي ﷺ قال: "لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن" وقال الصغاني: "غير القرآن" ثم اتفقا – "فمن كتب عني غير القرآن فليمحه". وقال: "حدثوا عني، ولا تكذبوا عليّ، ومن كذب عليّ - قال همام أحسبه قال "متعمداً" فليتبوأ مقعده من النار". (24)

3 - وهناك ظاهرة ملموسة في هذا القسم يلاحظها من ينعم النظر في الكتاب، وهي أن هناك كلمات تتكرر أو عبارة بعينها تتكرر، وهذا الترديد الذي ذكره البغدادي، إن هو إلاّ مظهر من مظاهر الجمال، لأن الترديد فضلاً عن أنه يوضح المعنى ويقرره، يُضْفي على الأسلوب ظلالاً من الجمال والروعة، وأمثلة هذه الظاهرة في الكتاب كثيرة منها: "لا تكتبوا عني شيئاً"، أو عبارة "فاحفظوا عنا كما حفظنا"، وعبارة "لا تكتبوا عني غير القرآن" و "فأبى أن يأذن لي" وعبارة "فغسله" أو "فمحاها"، فالعبارات المكررة هنا صارت مألوفة لدى الجميع، كأنّ هناك اتفاقاً بين المخاطِب والمخاطَب على أمر وهو معروف سلفاً، وهذا يعني أن التعبير عن هذا المعنى لا يختلف كثيراً بين واحد وآخر من الصحابة والتابعين.

4 - على أن ظاهرة المنع عن التدوين لم تلبث أن استحكم سلطانها مع الزمن ووجدنا أن وتيرتها خفت شيئاً فشيئاً وأن الكلمات أو العبارات التي نراها في كلام الرسول ﷺ تختلف تماماً عما نراها لدى الصحابة والتابعين، فنحن في الكلام التالي للرسول وهو "لا تكتبوا عني شيئاً إلاّ القرآن، فمن كتب شيئاً

(24) تقييد العلم، ص29.

فليمحه" [25] شاهدنا المنع عن التدوين بكل صراحة ووضوح، وإذا تقدمنا في الزمن وأخذنا كلام التابعين بخصوص المنع نراها في غاية الاختصار وإنما تكتفي بكلمة واحدة مثل: أخبرنا محمد بن الحسين القحطان، أخبرنا عبدالله بن جعفر، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد قال: قلت لعبيدة "أكتب منك ما أسمع؟" قال: "لا" قلت: "وجدتُ كتاباً أنظر فيه؟"، قال: "لا". [26]

وكانت نقطة الانطلاق في كتاب تقييد العلم وتحديداً في القسم الأول منه بيان الأسباب والعلل التي أدت إلى كراهة كتاب الحديث، فذكر البغدادي أسباباً ثلاثة: فالسبب الأول هو: خوف الانكباب على درس غير القرآن وما ورد من ذلك وهو يقول: أخبرنا ابن رزقويه، أخبرنا عثمان بن أحمد، حدثنا حنبل بن إسحاق، حدثنا قبيصة بن عُقبة، حدّثنا سفيان بن معمر عن الزهري عن عروة قال: أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله تعالى شهرين ثم أصبح وقد غُرم له، فقال: "ذكرت قوماً كتبوا كتاباً، فأقبلوا عليه، وتركوا كتاب الله ﷻ".[27] والسبب الثاني هو: خوف الاتكال على الكتاب وترك الحفظ وما ورد في ذلك مستشهداً بالرواية الآتية: أخبرنا ابن رزقوية أخبرنا اسماعيل بن علي وأبو علي بن الصواف وأحمد بن جعفر بن حمدان قالوا: حدثنا عبدالله بن أحمد، حدثنا أبي، حدثنا حجاج قال: قال شعبة، قال خالد الحذاء: ما كتبت شيئاً قط، إلاّ حديثاً طويلاً، فإذا حفظته محوته".[28] وأمَّا السبب الثالث والأخير الذي ذكره الخطيب فهو: خوف صيران العلم إلى غير أهله، ومن دفن الكتب وأتلفها لذلك: وأخبرنا ابن رزقويه، أخبرنا عثمان، حدثنا حنبل، وأخبرنا ابن الفضل،

(25) تقييد العلم، ص 30 .
(26) المرجع نفسه، ص 45.
(27) تقييد العلم، ص49.
(28) المرجع نفسه، ص 59.

أخبرنا ابن درسويه، حدثنا يعقوب قالا: حدثنا قُبيصة، حدثنا سفيان عن النعمان بن قيس قال: دعا عبيدة بكتبه عند موته، فمحاها، وقال: "أخشى أن يَلِيَها أحد بعدي فَيَضَعَها في غير مواضعها".(29) وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: هل أعطى البغدادي الموضوع حقه في بيان الأسباب؟ للإجابة عن هذا السؤال نستأنس برأي الدكتور ناصر الدين الأسد قائلاً: "فالخطيب البغدادي إذن إنما يُرجع سبب النهي عن الكتابة في الحديث النبوي إلى "قلّة الفقهاء في ذلك الوقت"، ولم يُرجعها إلى قلة الكاتبين أو إلى أن العرب والصحابة كانوا أميين كما ذهب الكثيرون الذين يلقون الكلام إلقاءً عاماً لا تحقيق فيه ولا تدقيق. بل إننا لنزيد على ذلك فنرى أن هذه الأحاديث نفسها الناهية عن الكتابة إنما تدلّ على وجود الكتابة وشيوعها آنذاك شيوعاً جعل الرسولَ الكريمَ ينهاهم عن كتابة الحديث. ولولا ذاك لكان في غنى عن هذا النهي" (30).

موقف الخطيب من الإباحة:

وقد بيَّن الخطيب البغدادي في القسم الثالث من كتابه (تقييد العلم) الأحاديث والأخبار التي تشير إلى موافقة الرسول والصحابة على الكتابة ولاسيما كتابة الحديث، فجعل هذا القسم من الكتاب في أربعة فصول على النحو الآتي: الفصل الأول: إباحة الرسول للكتابة ، الفصل الثاني: من روى عنه من الصحابة أنه كتب العلم أو أمر بكتابته، الفصل الثالث: الرواية عن التابعين في كتابة العلم أو الأمر بكتابته، والفصل الرابع: الكتاب يحفظ العلم.

ونلاحظ على هذا القسم ما يأتي :

(29) المرجع نفسه، ص61.

(30) مصادر الشعر الجاهلي، ص 58.

1 - تأتي الرخصة في كتابة العلم نتيجة الشكوى من سوء الحفظ في أكثر الحالات أو الخوف من النسيان، كما ورد في الأمثلة الآتية: (31)

- أخبرنا محمد بن الحسين، أخبرنا أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد، حدثنا موسى بن اسحاق الأنصاري، حدثنا جعفر بن حُميد، حدثنا عبدالصمد بن سليمان عن الخطيب بن جَحْدَر عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: كان رجل يشهد حديث النبي ﷺ، فلا يحفظه فيسألني، فأحدثه، فشكا قلة حفظه إلى رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: "استعن على حفظك بيمينك" يعني الكتابة.

- أخبرنا أبو سعيد الصيرفي، حدثنا محمد بن يعقوب الأصم، حدثنا العباس ابن محمد الدوري، حدثنا يحيى بن معين؛ وأخبرنا الحسن بن الحسين النعالي، أخبرنا علي بن هارون السمسار، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة قالا: حدثنا يحيى بن سعيد عن عبدالرحمن بن حرملة قال: كنت سيئ الحفظ، زاد الصيرفي: أو كنت لا أحفظ، قال: ثم اتفقا فرخص لي سعيد بن المسيب في الكتابة. (32)

- أخبرنا الحسن بن أبي بكر، أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن عبدالله بن زياد القطان، حدثنا ابن أبي الحنين، حدثنا أبو غسان، حدثنا يونس بن عبدالله بن أبي فروة عن شرحبيل أبي سعد قال: دعا الحسن بن علي بنيه وبني أخيه فقال: "يا بني وبني أخي! إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه، فليكتبه، وليضعه في بيته". (33)

(31) تقييد العلم، ص65.

(32) المرجع نفسه، ص 95.

(33) تقييد العلم، ص 91.

2 - ويبدو أن الرخصة في تقييد العلم تأتي أحياناً حرصاً على تقوية البنية المعرفية والمرجعية للمتلقي، وعلى أننا نجد بين الأحاديث والروايات للرسول ﷺ والصحابة والتابعين مايشير إلى أنهم كانوا يؤثرون تقييد العلم، كما ورد في الأمثلة الآتية التي تؤكد ما ذهبنا إليه من جهة معرفة أعلام التراث الشفهي، ومن جهة بيان مدى حفظ النص وتقييده في ما بين الشفاهية والكتابية:

- أخبرنا الحسن بن أبي بكر ومحمد بن عمر الترسي قالا: أخبرنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم الشافعي، حدثنا محمد بن بشر بن مطر، وحدثنا عبدالعزيز بن علي الوراق لفظاً، حدثنا محمد بن أحمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني قالا: حدثنا سعيد بن سليمان عن عبدالله بن مؤمل عن ابن جُريج عن عطا عن عبدالله بن عمرو قال: قلت: "يا رسول الله أقيد العلم؟" قال: "نعم"، قلت: "وما تقييده؟" قال: "الكتاب".(34)

- أخبرنا أبو القاسم عبيدالله بن أبي الفتح الفارسي، أخبرنا محمد بن العباس الخزاز، أخبرنا إبراهيم بن محمد الكندي، حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى، حدثنا ابن داود، حدثنا حبيب بن جُرَيْ قال: قال علي: "قيدوا العلم بالكتاب".(35)

- أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا ابن الصواف، حدثنا عبدالله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا وكيع، حدثني الحسن بن عقبة يعني أنا كبران؛ وأخبرنا أبو طالب بن الفتح، أخبرنا عمر بن إبراهيم المقري، حدثنا عبدالله ابن محمد،

(34) المرجع نفسه، ص 68.

(35) المرجع نفسه، ص 89-90.

حدثنا أبو خيثمة، حدثنا وكيع عن أبي كبران قال: سمعت الشعبي يقول: "إذا سمعت شيئاً فاكتبه، ولو في الحايط".[36]

3 - لم تكن الرخصة في تقييد العلم مذهباً أطلقه الرسول ﷺ والصحابة والتابعون لابدَّ من اتباعه، وإنَّما هذه فكرة تسوقها الحاجة الشعبية وخلقها أسئلة عامة الناس، والإجابات على الأغلب كانت قصيرة جداً لا تتجاوز كلمة "نعم". وإليك المثل الآتي:

- أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى بن عبدالعزيز البزاز بهمذان، حدثنا صالح بن أحمد الحافظ، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عَمْرُوس قراءة، حدثنا موسى بن نصر الرازي، حدثنا أبو زهير عن إسماعيل بن رافع عن خالد بن يزيد عن عبدالله بن عمرو قال: قلت: "يا رسول الله، إني أسمع منك أشياء أحب أن أَعيَها، فأستعين بيدي مع قلبي قال: "نعم".

4 - ثم إن تقييد العلم يجلب نوعاً من الثقة بالنفس للإنسان ويؤدي إلى رفع معنوياته. انظر إلى هذه الرواية:

- أخبرني أبو الحسين أحمد بن عمر بن علي القاضي بدرزيجان، أخبرنا محمد بن المظفر الحافظ، أخبرنا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، حدثنا أحمد بن الفرج، حدثنا يحيى بن سعيد العطار، وأخبرني أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن الخلال، أخبرنا محمد بن جعفر النجار، حدثنا الحسين بن إسماعيل، حدثنا أبو عتبة الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد العطار، حدثني يحيى بن سلام عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة: أن

(36) تقييد العلم، ص100.

رجلاً من الأنصار قال: "يا رسول الله إني أسمع منك أحاديث وأخـــاف أن تُفلِتَ مني"، قال: "استعن بيمينك". (37)

5 - ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه الظاهرة هو ضبط العلم وربطه بالكتاب:

أخبرنا أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن سليمان المؤدب بأصبهان، أخبرنا أبـــو بكر بن المُقري، حدثنا أبو القاسم سلامة بن محمود بن عيسى القيسي

بعسقلان، حدثنا محمد بن حمدان الطهراني، أخبرنا عبدالرزاق قال: كان ابـــن جريح إذا سئل عن شيء، قال: "اكتب، فما قُيِّدَ العلم بشيء مثل الكتاب". (38)

ونظراً إلى الأهمية التي تتمتع بها هذه الظاهرة، خصَّ لها البغدادي القسم الرابع والأخير من كتابه، فبسط القول في فضل الكتاب وضرورة اقتنائه .... وأنا أذكر نبذة من أقوال أهل الأدب في فضل اقتناء الكتب، والأمر باتخاذها، والحث على جمعهـــا، وإدامة النظر فيها، والتحفظ لعيون مضمونها، ووصف الشعراء لها، ليكون كتابي هذا جامعاً لمعنى ما يتعلق بتقييد العلم وحراسته، وباعثاً على صرف المرء عنايتـــه إلـــى قراءته ودراسته... (39) .

وقد وزعه في أربعة أقسام على النحو الآتي:

- الفصل الأول : فضل الكتب وبيان منافعها.
- الفصل الثاني : ومما ترجم به الكتب.
- الفصل الثالث : الإكثار من الكتب.
- الفصل الرابع : من وظف على نفسه الشغل بمطالعة الكتاب ودرسه.

(37) تقييد العلم، ص 66.

(38) المرجع نفسه، ص112-113.

(39) المرجع نفسه، ص 116.

- الفصل الخامس : من استوحش من الخليط والمعاشر فجعل أنسه النظر في الدفاتر.
- الفصل السادس: من سلك في إعارة الكتاب طريق البخل وضنَّ به عمن ليس بأهل.

وحرص البغدادي على سرد الأحاديث والأقوال التي وردت في فضل الكتاب وأهميته، وأورد في أثناء البحث كثيراً من الشواهد الشعرية والنثرية مما يعزز وصفه للكتاب والكتابة وهو يقول:

"قرأت في كتاب القاضي أبي الحسين أحمد بن علي بن الحسين التوّزي الذي سمعه من أبي محمد عبدالحميد بن عبدالرحيم التوزي قال: "الكتاب نديم، عهد وفائه قديم، الكتاب منادم، ليس من نادمه بنادم، الكتاب حميم، خيره عميم، الكتاب أخ غير خوان، فتفرد به عن الإخوان، الكتاب سمير سليم الظاهر والضمير". (40)

نتائج البحث:

أولاً: لم تكن فكرة اقتران الشفاهية بالكتابية فكرة غريبة لدى الكتّاب والعلماء قبل الخطيب، وإنما ظهرت ملامحها لديهم في القرنين الأول والثاني للهجرة، وكان للخطيب البغدادي قصب السبق في الاهتمام بهذه الظاهرة وبدراستها ونقدها.

ثانياً: أخذتْ فكرة اقتران الشفاهية بالكتابية لدى الخطيب منحى آخر يتسم بالاستقلالية والمنهجية العلمية، وبيان المفارقة، والأثر في المبنى والمعنى بينهما.

ثالثاً: لم تكن فكرة اقتران الشفاهية بالكتابية لدى الخطيب فكرة نظرية بحتة، وإنما كانت عملية وواقعية، سار عليها في منهجه العلمي، وقدّم نماذج وافية وواضحة من الشفاهية والكتابية تؤكد صحة رأيه وما ذهب إليه.

---

(40) تقييد العلم، ص 125.

رابعاً: أضفى الخطيب على هذه الظاهرة صبغة دينية (مرجعية) محاولاً ربطها بالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة لتوطيدها وترسيخها في العقول والأذهان.

خامساً: أعطى الخطيب لجانبي الشفاهية والكتابية حقهما من الأهمية، ولم يُقْلِل من أهمية جانب لصالح آخر، فكان موضوعياً وعلمياً بعيداً عن الاتجاه الذوقي أو الانطباعي، قريباً من النقد المنهجي.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي: هاشم عطية , مطبعة مصطفى الحلبي 1939
- البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 7، 1998 م
- تقييد العلم، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العش، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، 1949م
- الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ ، دار الجيل، بيروت، 1996م
- الخطط والآثار: المقريزي، بولاق،1270هـ
- ديوان جرير، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط 1 ، 1999
- الشفاهية والكتابية أونج، والترج: ترجمة د. حسن البنا عزالدين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1994م
- ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط4، 1988م
- قصة الحضارة: ويل ديورانت، مجلد 4، د2، ترجمة: محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة .
- محاورات مع النثر العربي: مصطفى ناصف ، عالم المعرفة 1997
- المرجع في النثر الأدبي في العصر العباسي: عبداللطيف عمران، منشورات جامعة دمشق.
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية: ناصر الدين الأسد ، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1978.

- معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، مؤسسة المعـــارف للطباعة والنشر، ط1، 1999م، بيروت ، لبنان
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: تقي الدين أحمد بن علـــي المقريـــزي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998م، تحقيق: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2012/6/19